

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

التأريخ المفصّل

٢ - حديث عيسى بن هشام

للدكتور زكي مبارك

تأريخ المجتمع وقد المجتمع - جريمة أدبية - سريرة المولى
- التحرش بالأزهريين - صفحات تعليمية - كلمة إنصاف

تأريخ المجتمع وقد المجتمع

المجتمع اسمه الجمعية في لغة المولى وفي لغة من عاصروه ، فهو يقول الجمعية الإنسانية ويعني بها ما نسميه المجتمع الإنساني . وقد لاحظنا فيما سلف أن « الجامعة المصرية » معناها في كتابات لطفي باشا السيد « الرابطة المصرية » وأن الجامعة بمعناها الجديد كانت تسمى الكلية ، وقد وردت بهذا النص في مجلة المقتطف عند الكلام عن إنشاء الجامعة المصرية . وبعض جرائد الشام لهذا المهد تذكر « الجامعة البشرية » وهي تعني الرابطة الإنسانية . فليتلفت الطلبة إلى أن في كتابات المولى ألفاظاً هجرها كتّاب اليوم ، أو تقلوها من رضع إلى وضع ، وللألفاظ أعمار وأزمان ! ثم أذكر أنه يجب أن نلاحظ الفرق بين تأريخ المجتمع وقد المجتمع ، ففي الكتاب فقرات تؤرخ المجتمع من غير قصد ، فنعرف منها بعض أحوال القاهرة منذ نحو خمسين عاماً ، كأن يصف المؤلف داراً بالزفة والرفاهية فيذكر أنها تضاء بالكهرباء . ونحن اليوم لا نقول ذلك ، لأن الأغلب في القاهرة أن تضاء الدور بالكهرباء ، وإن لم يكن أهلها أغنياء . وكأن يذكر المؤلف أن محكمة الاستئناف في حي الاستعمارية وأنها لم تكن تستقر في مكان . وكأن يقول : إن سكان مصر عشرة ملايين . وكأن ينص على أن المحامين أمام المحاكم الأهلية لا يعرفون اللغات الأجنبية ، وكأن يشير إلى متحف بولاق ومتحف الجزيرة ، وليس عندنا اليوم غير متحف قصر النيل . وكأن يذكر أن كتّاب المحكمة الشرعية ينتظرون حيرهم وينالهم على الأبواب ، وكأن يحمل سدّة « الدفترخانة » أشياء يحملون الدوى النحاسية في أحزمة القفاطين . وكأن يقول التشخيص وهو يريد التمثيل . وكأن يذكر في القانون الجنائي أشياء لا يعرفها قضاة هذا الزمان

وقد يقصد المولى إلى تأريخ بعض تطورات المجتمع في الزمن الذي سبق تأليف الكتاب ، كأن ينص على « سر الليل » ، فن هذا « السر » نفهم أن القاهرة كانت تُفلّق أبوابها بالليل فلا يدخلها أحد إلا بإشارة يفهم منها الشرطة أنه في غنى عن الاستئذان وهناك تأريخ يحمل معاني النقد ، كأن ينطق « الباشا » بمبارات ندرك منها أن النزعة التركية كان لها في زمانه مكان . ففي ص ٢٤ يعجب الباشا من أن لا يكون لأمير على مصرى أمر . وفي ص ٢٧ ينكر الباشا « أن يحكم الناس فلاح وبنوب عنها حرّات » . وفي ص ٤٣ يعجب الباشا من أن « يتمدى المصرى على الجندى » . وفي ص ٤٨ يصريح الباشا بأنه عاش دهره لا يعرف أن السجن يكون في عقاب الكبراء والأمراء ، وإنما يكون في عقاب السفلة من العامة والنوغاء من الناس ! ثم ينفجر المؤلف في ص ٧٢ فيقول في الأتراك كلاماً لا يقال اليوم ، لأن هذه النزعة قد اختفت أو ماتت ، بغض النظر عن الحادث الذي وقع منذ بضع سنين^(١)

النقد المفصّل

يجرى قلم المؤلف بمبارات تغذية خفيفة من صفحة إلى صفحات ، ثم يعمد إلى النقد عمداً فيسهب ويطيل . ولعل المحامين والقضاة والأعيان لم يصابوا في سمعتهم بأذى ولا أوجع مما رماه به المولى في عرامة نادرة المثال

هل كان المجتمع المصرى قبل خمسين سنة على نحو ما صوره ذلك القلم الفاتك ؟ وهل كان يغلب أن يكون القضاة من الفتيان الأماليد ؟ وهل كانت المحاماة نصباً في نسب وخداعاً في خداع ؟ وهل كان « العمدة » الذى تمقّبه المولى نموذجاً لجميع الأعيان في ذلك الزمان ؟

مجرى أدبية

هي جرعة المولى في تصوير المجتمع المصرى ، فقد اهتم بتجسيم العيوب مجسماً بلغ الغاية في القسوة والعنف ، وسكت عما في المجتمع المصرى من محاسن أصيلة هي سر بقاءه في صحة وعافية ، رغم ما أصاب هذه البلاد من كوارث وخطوب

الرحلة الأولى ، ولكن ما سبب ذلك الضعف ، مع تقارب الأسلوب في الرحلتين تقارباً يشهد بأن الكاتب هنا هو الكاتب هناك ؟

يرجع السبب إلى أن الموليحي لم يعرف من أوروبا غير فرنسا ، ولم يعرف من فرنسا غير باريس ، ولم يعرف من باريس غير طواهر سطحية لا تقلل الخاطر ، ولا تبطل الوجدان ، فكيف جاز أن يدعى القدرة على تصوير المدينة الغربية ؟

الموليحي لم يعرف باريس ، وإن زار باريس ، ولو أنه عرف تلك المدينة في حياتها الحقيقية « كما عرف القاهرة في حياتها الحقيقية » لقال فيها كلاماً غير الذي قال ، ولكن من الجائز أن يُفرد بها بكتاب يشرح ما تعاني من اضطراع المذاهب والآراء ، فقد زار باريس وهي في عنفوان الفتوة ، وفي اتصال وثيق بأهم الغرب والشرق ، ومع هذا لم يستطع أن يدون من حيواتها غير بوارق مهددة بالجمود

بدا لي مرة أن أعرف ما أُلّف عن الحى اللاتينى ، فجمعت نحو ثلاثين كتاباً ، منها كتاب بصور ما يعانى طلبة السوربون من اليهود المراهين

وبدا لي مرة ثانية أن أحصي الكتب القائمة بالحى اللاتينى وهو مهد الفكر الحر ، فهالني أن أجده فيه مكتبة لا تبيع مؤلفات رينان بحجة أنه زنديق

وبدا لي مرة ثالثة أن أعرف إلى أى مدى تنصل باريس بأساطير الأولين فجمعت من ذلك أشياء وأشياء... فأين الموليحي من ذلك التعقيد العنيف ؟

وخلاصة القول أن إخفاق الموليحي في تصوير الحياة الباريسية يرجع إلى أنه لم يمان فيها مشكلات تزول العقل أو تثير الوجدان ، فجاء حديثه عن تلك الحياة أضعف وأضعف من أن يسامى حديثه الأول في وصف الحياة المصرية... والأدب يأخذ قوته من التجارب والمشاهدات ، لا من الحدس والتخمين . وكذب من ادّعوا أن الأدب أوهاهم وظنون

ومن الواجب أن نسجل أن الموليحي نظر إلى المدينة الغربية بالعين الشرقية ، فلم يحاول إبراز ما فيها من خصائص إيجابية ، كما حاول إبراز ما فيها من خصائص سلبية . وهو مع ذلك محمود الصنيع ، فقد جاهد في حدود طاقته جهاد الرجال ، ومن كان كذلك فهو جدير بكل ثناء .

وعذر الموليحي أن نقاد المجتمع لمهده كانوا جميعاً متشائمين ، ولو شئت لقلت إنهم كانوا يجدون لذة في التذمر والتفزز والتفجع ، ولهذا الاتجاه شواهد نجدها في كتابات توفيق البكرى ، وفي قصائد حافظ إبراهيم ، وفي تلك البيئة ظهر المنفلوطى فكان أدبه من صور القلق والازدجاج

وما أقول بأن أمثال هؤلاء الكتاب يفترسون على المجتمع ، لا ، فقد صوروا بيئات موجودة بالفعل ؛ وقد لا تنقرض ، فلن تخلو الدنيا من محام نصّاب ، أو قاض كسلان ، أو تاجر غشاش ؛ وإنما أنكر التعميم في الأحكام النقدية ، التعميم الذى يصم المجتمع في جميع طبقاته بالتفكك والانحلال ، مع أنه في الحقيقة لا يخلو من تماسك يضمن له البقاء

وإنما أعددت هذا المذهب جرعة أدبية لأنه ينتهي إلى التعجيز والتثبيس ، ولأن أثره في تقويم المجتمع أثرٌ ضئيل

يضاف إلى ذلك أن أصحاب هذا المذهب لا يضعون النماذج للمجتمع المنشود ، وإن فعلوا فلن يكون المجتمع الصالح في نظرهم إلا بيئة خيالية لا يعرفها سكان الكرة الأرضية

سريرة الموليحي

حديث عيسى بن هشام يشهد شهادة صريحة بأن الموليحي قد ارتطم في حياته بمشكلات ومعضلات خلقتها معاملاته مع الناس . والظاهر أنه عرف الحاكم المصرية من مختلطة وأهلية وشرعية ، عرفها مدعياً ومدعى عليه . والظاهر أيضاً أنه ابتلى بزمججات الأوقاف . ولا جدال في أنه عانى النذر من بعض الأصدقاء ، فله في الأصدقاء كلمات سارت مسير الأمثال . ويظهر كذلك أنه اتصل اتصالاً وثيقاً بالملاعب القاهرية في مكايدها الليلية ، ثم يظهر أنه بادل الصحفيين من معاصريه ظلماً بظلم ، وعدواناً بعدوان

أقول هذا لأدفع تهمة وُجّهت إلى الموليحي من أديب عظيم هو أخونا الأستاذ الزيات الذى يرى في « الرحلة الثانية » شاهداً على أن الرحلتين ليستا لكاتب واحد ، لأن الفرق بين الرحلة الأولى والرحلة الثانية بعيدٌ بعيدٌ (١)

والحق أن الرحلة الثانية ضعيفة كل الضعف ، بالقياس إلى (١) الرحلة الثانية محاولة أراد بها الموليحي تصوير المدينة الغربية ، ولكنه أخفق

النحرس بالازهرين

والمويلحي لا يكف عن التنديد بالمقلية الأزهرية ، فاعمل
هذه النزعة عند ذلك الأديب ؟

يرجع السبب إلى أن انقسام المتعلمين إلى معتمدين ومطربين
كان في عهد المويلحي فتنة تشو بين طبقتين ... كان المطربون
يرون أنفسهم طلائع الجيل الجديد ، وكان المعمون يرون أنفسهم
نحاة الدين الحنيف ... وكانت الدولة نفسها لا تستند للناسب
الإدارية لغبر المطربين ، بحجة أنهم أعرف بالأنظمة المدنية ،
وأقدر على سياسة الناس ... وهل ننسى أن منصب الوزير عرض
على الشيخ محمد عبده فرفضه بإباء ، لأن من عرضوا عليه ذلك
المنصب دعوه إلى خلع العمامة ولبس الطربوش ؟

كانت الفتنة قائمة بين هاتين الطبقتين ، وكان من المسير
أن توجد بينهما صلات خالية من شوائب التحاسد المستور
أو المكشوف . ولتلك الفتنة عقايل باقية إلى اليوم . ولا موجب
للتفصيل !

هذا هو السبب في حرص المويلحي على التنديد بالأزهرين ،
وهو أيضاً السبب في أنه هادسهم بعد انقطاع أسباب الشقاق .
ولكن كيف ؟

قلت إن الطبعة الأخيرة هي الطبعة الرابعة ، وأنا لم أقرأ هذا
الكتاب إلا في الطبعة الثانية ، وقد ظهرت منذ أكثر من ربع
قرن ، ومع هذا بقيت في ذاكرتي منها أشياء لم أجدها في الطبعة
الأخيرة . وبرغم ضيق الوقت عن مراجعة الطبعة الأولى أو الثانية
فأنا أذكر جيداً أن « عيسى بن هشام » مضى مع « الباشا »
لزيارة الأزهر الشريف ، وأذكر أنهما سمعا الأزهرين يتحاورون
ويتجادلون في بدعة إصدار الجرائد والمجلات ، وانتهى الرأي إلى
أن الأزهرى يستطيع أن يكون صحفياً إن أراد ، وقرأ أحدهم
مقالة نشرها أحد الأزهرين ، وهي مقالة افتعلها المويلحي ،
فقد كانت فيها أنذكرة غاية في الركاكة والإسفاف ، على نحو ما صنع
وهو يقتل ما يلقى في الأعراس من الخطب الرنانة والقصائد
الجياذ ! !

فكيف استجاز المويلحي أن ينال كتابه بالتعديل فيما يتصل
بحياة الأزهرين ؟

كان ذلك لأنه أراد أن يقرر كتابه للمطالعة في المدارس

الثانوية ، وكان يعلم أن المفتشين الذين يحكمون لكتابته أو عليه
هم في الأصل أزهريون ، ومن الحزم أن يتق شرهم بحذف ذلك
الحديث ... وآفة الأدب أن يمرض للنافع ، وأن تراعى فيه
خواطر بعض الناس

وإذن يكون من الحزم - ونحن نؤرخ الحياة الأدبية
والاجتماعية - أن تقرر أن الطبقات القديمة من هذا الكتاب
هي الأساس في تصوير ما سماه المويلحي « فترة من الزمن » ،
بدون مبالاة للمجاملات اليومية على حساب التاريخ .

صفحات تعليمية

في الكتاب صفحات أريد بها التعليم ، أعنى أن المؤلف
أراد بها شرح ما جد في مصر من الأنظمة والمواضع والقوانين ،
فما منهاجه المختار في الشرح ؟

هو يشرح وينقد ، يشرح أموراً وينقد أموراً كانت لعمده
تحتاج إلى إيضاح مصحوب بالاعتراض ، كالذي وقع في الصفحات
٤١ و ٤٢ و ٤٣ ، وهو يفصل أنواع الحاكم بهذه البلاد

يحدثنا المؤلف أن مفتي نظارة الحفانية - وزارة العدل -
أقسم الأيمان المملوطة أن القانون الفرنسي غير مخالف للشرع
الإسلامي ، مع أنه لا يعاقب على النسخ إن تجاوز عمر المفسوق به
الثانية عشرة يوماً واحد^(١) ومع أنه لا يعاقب من زنى بآمه
إذا هي رضية وكانت غير متزوجة ، ومع أنه بعد الأخ مجرم
جائياً إذا تعرض للدفاع عن أخته ، ولا يعطى حق الدفاع لغير
الزوج ، ومع أنه يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل ،
ولا يعاقب الزوج إذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها
ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه^(٢)

ويتكلم المؤلف عن المجالس التأديبية ، فنرى منه أنها خاصة
بعقاب الموظف الذي يغفل بتأدية وظيفته ، وأنها في الغالب
تتألف من رؤسائه الذين يتهمونهم ظالمين أو عادلين
أما حكم المؤلف على الحاكم التنصلي فلا يخففه غير
الاطمئنان إلى ذهاب عهد الامتيازات الأجنبية

(١) ضاق الوقت عن مراجعة هذه المادة من القانون الفرنسي ،
وأنا أجزم بأن المؤلف أخطأ في تقدير السن ، ولعل الأمر كان على هذه
الصورة في ذلك العهد

(٢) هي أحكام صحيحة من الوجهة القانونية ، ولكنها قاسدة من
الوجهة الأخلاقية